

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٤)

من مكارم الأخلاق

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما معناه
إنما بحثت لأفهم مكارم الأخلاق
صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم

العارف بالله

مولانا

فطيلة الشيخ / علي إسماعيل جاهين

رحمة الله ورضي عنه

وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء

مكارم الأخلاق

من المعاني التي يتناولها الدرس

- (١) من المستحيل أن نستطيع توحيد الله كما يجب أن يوحد سبحانه . لأن الأب واحد ، والأم واحدة ، والله عز وجل واحد . لكن الفرق أن وحدانية الله عز وجل لا تقبل التجزئة ، كما أنها لا تقبل التشية .
- (٢) لو سألت الأبن أن يقبل البديل عن والده ولو كان ذلك الرجل من أعظم رجالات المسلمين فلن يقبل هذا ، لأن ذلك ظلم شديد والحق لا يقبل الظلم ، كما أنه لا يجوز أن يكون لله نداً : تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .
- (٣) إذا أدي المسلم التكاليف الشرعية ، ولم يقصد بأدائها أن يكون الأداء علي وفق منهج الرسول عليه الصلاة والسلام فلا قيمة لما عمل .
- (٤) إذا خلت الصلاة من الخشوع . أصبحت جوفاء ، ولا يمكن أن تقرب العبد من ربه ، لأن الحق جعل الفلاح في الخشوع : (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ • الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ) .

(٥) حينما نوقن بأن الله هو المعبود ، وبأن التأسّي بسيدنا رسول الله صلي الله عليه وسلم هو العمل الصالح نكون بهذا قد تحلينا بمكارم الأخلاق .

(٦) (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ) طاعة الله تقتضي عبادته ، وطاعة الرسول عليه الصلاة والسلام تكون في الاقتداء به .

(٧) مما مميّز الله به النفس البشرية أنه منحها وخصها بجهازين: إلهام التقوى ، وإلهام الفجور . وبصلاحهما تصلح الآخرة و الدنيا .

(٨) تناول المباحات في الدنيا من إلهام الفجور - وإلهام الفجور سيصحبنا إلى الجنة قال تعالى لسيدنا آدم عليه السلام : (اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ) و الغريزة من إلهام الفجور : إذا لم يعص الله . فإذا عصاه كان من القسم الثاني من إلهام الفجور وهو الذي يعاقب صاحبه علي مخالفة الله .

مكارم الأخلاق

عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال في الحديث ما
معناه :

((إِنَّمَا بَعَثْتُ لَأَنْتُمْ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ))

بدأ الشيخ حديثه (رحمه الله) بقوله : من المستحيل أن أستطيع
توحيد الله كما يجب أن يُوحَّدَ سبحانه لأن أبي واحد ، وأمي
واحدة ، والله واحد • فما الفرق بين توحيد الخالق وتوحيد
المخلوق • ؟ أستطيع أن أقول : إن وحدانية الله لا تقبل
التجزئة ولا التشية • (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ • اللَّهُ الصَّمَدُ • • •
السورة الكريمة) فمعنى الله أحد : الأحدية كما قلنا لا تقبل
التجزئة • والوحدانية لا تقبل التشية • حينما قال الحق :
(**وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا**)
بهذه الآية يعلمني الله وحده كيف تكون الوحدانية : فلو
سألت شخصاً ما • بم عرفت أن هذا أبوك ؟ وَمَنْ أَخْبَرَكَ ؟
سيكون جوابه أبي ، لأنه هو الذي تولى تربيتي منذ صغري •
وأمي هي التي أخبرتني بأن هذا أبي • ولو سألت الابن مرة
أخرى • هل تقبل أن يكون والدك مثلاً (على سبيل البذل)

رجلا من أعظم رجالات المسلمين • وهو سيدنا أبو بكر
رضى الله عنه ؟ ستكون إجابة الابن بالرفض • لأنه لن يقبل
مطلقاً أن يستبدل والده برجل آخر حتى ولو كان هذا الرجل
من أعظم الشخصيات ، لأن هذا ظلم شديد والله لا يقبل
الظلم • والحق لا يقبل مطلقاً أن يكون له شريك : (**يَا بُنَيَّ
لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**) فإذا كان الإنسان
لا يقبل مع أبيه أو أمه الشراكة • فكيف يقبل أن يكون مع
الله شريك : فالوالدان قد أحسنا إليك منذ وجودك • والحق
قد أحسن إليك قبل وجودك • فمن الظلم حينئذ أن تشرك
بالله • ولهذا قال الحق : (**وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً
وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا**) ولا يجب الإنسان على ما به من صفات
إلا الوالد ، فالأب يحب ابنه حباً غير معلول بعلة • ولا أملاً
في الانتفاع بسعيه • أما غير الوالدين • فلا بد أن يكون
الحب لنفع دنيوي • فالابن يحب والده حتى تخرجه من
الجامعة وتزوجه • والزوجة هكذا طالما كان الزوج قادراً
قوياً • فإذا ما أدركته الشيخوخة • قد تستهين به إذا كانت
ضعيفة الإيمان أو الأخلاق • والابن إذا ما كبر لن يستطيع

أن تفرض عليه رأيك ولقد صدق الله (**كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ**) .
 (**أَنْ رَّاهُ اسْتَغْنَى**) ولننظر إلى حب الأبناء لأبنائهم ، وتسامح
 الأباء مع أبنائهم ، وتمني الخير لأبنائهم كل هذه الصفات من
 مكارم الأخلاق التي حدثنا عنها سيدنا رسول الله صلى الله
 عليه وسلم في قوله (**إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ**)
 تلقائياً يعطف الأباء على أبنائهم فأخلاقهم مع أبنائهم أخلاق
 نبوة . فلو أخطأ الابن مع أبيه ، ثم اعتذر له ، لأسرع الأب
 إلى قبول عذره ، والحنو عليه . وهذا أكبر دليل على أن
 مكارم الأخلاق موجودة في الإنسان بالفطرة . (**فِطْرَتَ اللَّهِ**
الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا) . والله سبحانه وتعالى سيحاسب
 خلقه على هذه الفطرة الإيمانية (**الْحَقِّ سُبْحَانَهُ يَرِيدُ مِنْ**
عِبَادِهِ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ أَنْ يُسْتَخْدَمُوا جزئاً مِنْ هَذِهِ الْفِطْرَةِ مع
 المجتمع الذي يعيشون فيه ليس من مكارم الأخلاق ، ولا من
 المروءة ، ولا من العقل أن تجعل مع الله شريكاً لأن المسلم إذا
 أشرك مع ربه بعد أن خلقه ، وسواه ، ورزقه ، وأعطاه الصحة ،
 ورزقه الهناءة في حياته يكون إنساناً معدوم الضمير . سيئ
 الأخلاق جحوداً ، لأنه قابل النعم الكثيرة بإعراضه عن
 خالقة ، وعدم شكره . وإن من أعظم نعم الحق على عباده أن
 جعلهم مسلمين) .

والحق في قوله (**وَاعْبُدُوا اللَّهَ**) دليل على تفريطنا في العبادة ،
وقوله : (**وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**) دليل على تلبسنا بالشرك ،
والشرك أنواع كثيرة • كما قلت : فشرك القلب أربعة :
١- أن تجعل لله نداً •

٢- اليأس من رحمة الله لأن فيه تعطيلاً لصفات الجمال •

٣- الأمن من مكر الله ، لأنه بهذا عطل صفات الجلال •

٤- الإصرار على المعاصي •

وليس من مكارم الأخلاق أن تشرك مع الباري (**هَلْ جَزَاءُ
الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ**) ظاهر الآية يوضح أن من أحسن
العمل في دنياه ، أحسن الله إليه في أخراه لكن المعنى الذي
يفيدنا كأن الحق يقول لعبده لقد أحسنتُ إليك منذ خلقتك •
فكان مقتضى إنعامي عليك أن تقابل إحساني إليك • إحساناً
في العبادة من حيث الإخلاص والتوحيد • يوضح هذا المفهوم
قول الحق : (**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ
نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ**) من مكارم
الأخلاق برُّ الوالدين • و زكاة الفطر لأنها فريضة فإذا لم
يُردها المسلم فصومه معلق بين السماء والأرض : والتعليق هذا

رحمة حتى يؤدّيها • والحديث (من عصاني وبر بوالديه
 أدخلته الجنة ولا أبالي) : ومعنى الحديث أن المؤمن إذا ما
 جد في الطاعة • وبر والديه • وكان يرعى الله فيهما غفر له
 خطايا • وعلامة جده في الطاعة • أن يكون ربانيا •
 [وليست الربانية أن تقول للشئ كن فيكون : إنما أقصد
 بالربانية أن يتخلق المسلم بأسماء الله الحسنى • وأن يتخلق
 بالقرآن • ولذا فقد وصف الله رسوله بأعظم الصفات (وَإِنَّكَ
 لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) • وطاعة الله تقتضي طاعة الرسول :
 وطاعته عليه الصلاة والسلام في الأمثال له : فإذا لم يطع
 المسلم سيدنا رسول الله صلى عليه وسلم فلا يمكن أن تقبل
 طاعته • أنا إذا فعلت كما كان يفعل سيدنا رسول الله صلى
 الله عليه وسلم • لكني لم أقصد إتباع منهجه لا قيمة للعمل •
 فلو أدت الصلاة مثلاً وأتيت بالركوع والسجود ، وقرأت
 مثل ما كان يقرأ صلى الله عليه وسلم لكني لم أكن معه في
 الحال • فلا قيمة للعمل • لأن الحق يقول : (قَدْ أَفْلَحَ
 الْمُؤْمِنُونَ • الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ • وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ
 اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ) الصلاة في هيئتها إذا ما أدتها كنت مقتدياً

بالرسول عليه الصلاة والسلام . لكن الخشوع لا يكون إلا
للحق سبحانه وتعالى : ومعنى التأسي به عليه السلام يظهر في
التعبد والتذلل والانكسار ، لأن سيدنا رسول الله صلى الله
عليه وسلم جاء ليعلمنا العمل الصادق الصالح ، لا العمل
الذي يؤدي ارتجالياً أو عشوائياً . بحيث يأخذ صورة العمل
وشكله فقط: بل لا بد من الوصول إلى جوهره وحقيقته .
فعلى المؤمن إذا أراد التقرب إلى الحق . وإذا أراد الدار الآخرة
، وجب عليه أن يتقن التكليف الذي قام به باطناً وظاهراً
وبذا يكون قد حقق الغاية من التكليف ، وجني ثمرته ،
وتأسى بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . (والأسوة
الحسنة حينما نوقن بان الله هو المعبود ، وبان التأسي بسيدنا
محمد رسول الله هو العمل الصالح . بهذا نكون قد تحلينا
بمكارم الأخلاق ، لأن مكارم الأخلاق كلها في إتباعه صلى
الله عليه وسلم . ولهذا كان من الضروري والحكمة أن
يكون الرسول بشراً) . وحينما وصفه الله بأنه بشر . لَا لِنَعْلَمَ
بمكانته بل لِمَيِّزِهِ صلى الله عليه وسلم بالوحي .
الكفار وحدهم هم الذين يقفون بالبشرية عند المثلثة . لكن

المؤمن موقن تماماً بما ميزه به الحق بقوله (يُوحِي إِلَيَّ) وجاء
الرسول عليه السلام ليتولى تربية الأمة على منهج الله
وكتابة . دليلنا على هذا قول الحق : (هُوَ الَّذِي بَعَثَ
فِي الْأُمَمِينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ
الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) والحق
يقول (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ) فصل بين الطاعتين ،
لأن طاعة الله عز وجل تقتضي عبادته سبحانه ، وطاعة
الرسول عليه الصلاة والسلام تقتضي إتياعه . فطاعة
الله تقتضي معصية الشيطان ، وطاعة الرسول عليه الصلاة
والسلام تقتضي مخالفة هوى النفس . ولهذا قال الحق :
(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ . فَإِنَّ الْجَنَّةَ
هِيَ الْمَأْوَىٰ) وأكد الشيخ أن من خاف مقام الله فإن نفسه
تمتنع عن الهوى تلقائياً . وكل من خاف مقام الله فإنه من
غير شك يستجيب لأوامره ، ويتعد عما نهى عنه والحق
سبحانه عندما خلقنا منَّ علينا بالهيام الفجور ، وإلهام
التقوى : ولقد قال في كتابة العزيز : (وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا .
وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا . . . إِلَى أَنْ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ . وَنَفْسٍ وَمَا

سَوَّيْهَا • فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا • قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا • وَقَدْ
خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) وضرب الشيخ مثلاً لإلهام الفجور والتقوى
فقال • وجود علامات السرور كالضحك بالنسبة للإنسان ،
وكذا وجود علامات الحزن كالبكاء • هل هما دليلاً كمال
أو نقص ؟ أجاب الجميع دليل كمال • ثم قال لو كان الضحك
في وقت لا يسمح بالضحك • أو وجد البكاء في وقت
لا يطلب فيه البكاء هل يكون هذا محموداً أم مذموماً • ؟
أجاب الجميع بالنفي وعدم الجواز ثم قال الشيخ إلهام
التقوى ، وإلهام الفجور أشبه بهذا • فحينما يرى المؤمن
ما يغضب الله ويرضى بهذا يعتبر من إلهام الفجور لأنه
رضى بما يغضب ربه • وكذا لو فعل المؤمن المعصية لأنه بسلوكه
في الحالتين قد فجر في سلوكه وخرج على قواعد الشرع
والأخلاق : وقد يطلق الفجور ويراد به تناول المباحات •
وهذا لا حرمة فيه • فإذا ما تناول المباحات قاصداً أن يعينه
الله على الطاعات ، والسعى على طلب العيش الحلال كان هذا
الشق من إلهام التقوى • وإلهام الفجور من هذا القبيل هو
الذي جاء من أجله الرسول ودعا إليه لأنه بواسطة إلهام

الفجور سيشدنا إلى العمل من أجل دخول الجنة ، يؤيد هذا ما ورد في القرآن الكريم (يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا) بِمَ يُبَشِّرُنَا الرسول عليه الصلاة والسلام . ؟ يبشرنا بالجنة وما فيها من متاع في المسكن ، والمأكل ، والمشرب ، والملبس كما بينا سابقاً في كُتَيْبٍ آخر . ولو خلت الدنيا من هذه الأشياء لظلت الجنة بعيدة عن عقولنا وتصوراتنا . ولكنه الخالق الحكيم : الذي يعلم كيف يسوق خلقه المؤمنين إلى الجنة . فلو سأل كل منا نفسه لماذا تحب الدنيا ؟ قال لما فيها من مأكل ، ومشرب ، وملبس ، ومتع كثيرة ، حينما يجد هذا في الجنة وما يزيد على ذلك كما يقول الحق : (وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ • إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ) وحينما يسمع النداء من قبل الحق عند دخوله الجنة : (سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ) يزداد تشوقاً إلى الجنة وحرصاً على الإكثار من أعماله الصالحة .

أما إلهام التقوى . فكله خير ، ولا يدعو إلا بخير ، ولا يحدث إلا بخير . بل وهو الذي يخلص المؤمن من آثار إلهام الفجور السيئة في الدنيا والآخرة . فلو أراد إنسان أن يرتكب زوراً لتدخل إلهام التقوى وقال للإنسان سينفضح

أمرك • وسيقودك فعلك هذا إلى السجن في الدنيا والعذاب في الآخرة • ولو تيقظ الإنسان حينئذ لأقلع عن غيّه ، ورجع إلى ربه • وعلم أن للقانون سلطة ، وللب رب مراقبة حينئذ سيرجع عن غيّه وسفهه : وكما وضع الشيخ أن الدنيا نموذج صغير للآخرة • لكن اختصت الآخرة : (فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت • ولا خطر على قلب بشر)

ولما طلب الحاضرون زيادة إيضاح قال رضي الله عنه • أقسم الله سبحانه بالشمس وآثارها على الكون • وما فيها من حرارة وغيرها مما يكون له كبير الفائدة بين أن النفس البشرية خلقها الله كذلك وجعل فيها جهازين مختلفين : جهاز الهام التقوى ، وجهاز إلهام الفجور • وبين أن الفلاح كل الفلاح هو أن يستغل المؤمن إلهام الفجور ليحيله إلى مرضاة الله عز وجل • كما قال الحق : (وَابْتَغَ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ) ووضح ذلك بقوله (زَكَّاهَا) أي غامها ، رشحها ، أحال فجورها إلى الجنة وحينما قال الحق :

(وَأَتَّبِعْ فِيهَا مَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ) لا يعنى المال بل يجب أن يتقى بالهيام الفجور النار (وَلَا تَنسَ نَفْسِيكَ مِنَ الدُّنْيَا) ولقد بينت السورة أن هذه النفس البشرية التي تدرك بها الحقائق وحياة النعيم ، هذا النموذج أعطيته لك كي تعيش في الدنيا حياة التصديق ، وتعيش في الآخرة حياة التحقيق ، وقول الله عز وجل (فَأَمَّا مَنْ طَفَى • وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا) مصداقاً لقول الحق : (مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ) حتى قال أحد الصحابة ما كنت أظن أن أحداً يبتغى الدنيا حتى نزلت هذه الآية : وكما قلنا وسنظل نقول : إن سيدنا آدم عليه السلام دخل الجنة يالهام الفجور مصداقاً لقول الحق (اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ) والغرائز عندنا في الدنيا ست : (زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ • وَالْبَنِينَ • وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ، وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرِثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمُنَآبِ • قُلْ أَوْفَيْتُكُمْ بِخَيْرِ مِمَّنْ ذَاكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ) بعد أن عرض الحق ما عرض من متاع الدنيا لعموم الناس ثم بين

عز وجل أن هناك صنفا من الناس لم تغرهم الدنيا ولن تغرهم
بزخارفها فقال الحق : (**قُلْ أُوْنِبْتُكُمْ** . . . الآية) وبين أن من
تساموا بغرائزهم (هؤلاء القوم) أعد لهم مولا هم الجنات وما
فيها من نعيم خالد : وفي قول الحق (**لِلَّذِينَ اتَّقَوْا**) في هذا
تخصيص لكل من وقف في طريق نفسه حتى جعلها لا تركز إلى
هواها ولا تعيش بغرائزها كالحیوان : تعرض الشيخ بعد هذا
مرة أخرى لقول الرسول عليه الصلاة والسلام (**فيها مالا عين
رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر**) . فقال : إن
نعيم الآخرة متجدد في كل لحظة من الزمان . فما يذوقه
المؤمن من الطعام والشراب يجده في كل لحظة من الزمان يختلف
عن الزمن والوقت السابق . وما أشبه هذا التغاير بالأنس
الذي يجده المسلم مثلاً في صلاة الصبح . يجد أنساً آخر
مختلفاً عنه في صلاة الظهر أو المغرب مثلاً وهذا هو سبب
التفاوت بين المسلمين في الجنة ، ولأن الجزاء من جنس العمل
قال الحق (**جَزَاءُ كَيْفًا كَانَ الْكَمَلُ**) ثم قال إن تركية النفس
البشرية يرجع إلى استعمال صمام الأمان ، وهو إلهام التقوى .
فقال لناخذ مثلاً لهذا في الدنيا أثرت في مجتمعٍ ما مشكلة .

ولو أردت أن تتاولها بالنقد لتدخل إلهام التقوى وحذرك
من التطرف أو التهور حتى يصل كلامك إلى قلب مستمعك .
فإذا كنا نستعمل هذا في حياتنا الدنيوية . فما بالناس نجترئ
على الله والناس ولا نبالي بالمعاصي ، ولا بكل ما يغضب الله
فنتجنبه . أيهما أولى . الخوف على فوات الدنيا ؟ أم الخوف
على فوات الآخرة ؟ والله الرحمن الرحيم خلق جهاز التقوى
ليكون حجة علينا إذا نحن لم نستخدمه في كل ما ينفعنا آخره
ودنيا .

ومعلوم لنا كمؤمنين جميعاً أننا مطالبون بالإيمان باليوم الآخر ،
لأن الرسول عليه الصلاة والسلام مكث يدعو الناس إلى
التوحيد ، والإيمان باليوم الآخر ثلاثة عشر عاماً في مكة لم
يَدْعُ الناس إلى صلاة أو صوم أو غيرها ، لأن ترسيخ العقيدة
كان الركيزة الأولى التي سيرتفع عليها البناء ، وتأملوا معي
قول الحق (اَلَمْ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ . الَّذِينَ
يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ
يُنْفِقُونَ . . . إلى قوله عز وجل (وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ)
ومعنى الإيمان بالغيب : الإيمان بالله وصفاته . وأسمائه الحسنی .

فهو رب رحيم ، ودود ، رحمن رحيم ، قادر قاهر ، لطيف
خير ، إلى غير هذا من صفاته سبحانه . والإيمان باليوم الآخر .
نعني توحيده في الآخرة والتوحيد في الدنيا توحيده بجميع
صفات الربوبية . وأقرب شيء نؤمن به قوله سبحانه (هُوَ الَّذِي
خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ
مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ
فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ) فهل نشعر نحن بجميعة الله لنا ؟ هل
نحن نؤمن بأن الله سميع بصير ؟ . ما موقف الإنسان المسلم
من ربه حينما تمر عليه فتاه ولا يغض بصره ، مع علمه بأنه
سبحانه سميع بصير ؟ ثم قال الشيخ مَنْ مَنَّا يستطيع أن يقول
إنه تائب من الزنى مطلقا ، أنا على الرغم من شيخوختي لا
أستطيع أن أجزم بهذا . لكني أقول أن الله بفضله ورحمته
حماني من هذا . وهو الذي يحفظني منه مستقبلا إذا ما أدركتني
عنايته ، ولا يمكن أن نقنع الناس مطلقا بالبعد عن الغريزة
إلا بالإيمان ولذا عبر الحق حينما نهانا عن الزنى فقال
(وَلَا تَقْرَبُوا الزَّنى) لأنها أقوى الغرائز .

إن السلامة من سلمى وجاراتها * ألا تمر على حال بواديهما
لأن هذه الغريزة لا تخضع للعقل بدليل أن الإنسان ينام
أحيانا وحده ثم يجد نفسه (محتملاً) • من اين أتى هذا ؟
نقول أتى من خطورة هذه الغريزة حيث لا سيطرة عليها
إلا بالخوف من الله • ونحن نشاهد عندما تمر امرأة أمام شباب
مثلا ماذا يكون ؟ سريعا تبرز الغريزة وتريد أن تؤدي دورها
بالفطره ساعتها يكون إلهام التقوى بمتلة (الفرائد) ،
حتى يوقف تيار الغريزة • فالإنسان حينما ينظر إلى الأجنبية
بشهوة يكون فاقدا للإيمان بالغيب ، فاقدا للامثال لأمر ربه •
فاقدا للإحساس بمعيتة • وكان على المؤمن أن يكون عند
وصف ربه للمؤمنين (يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ) والحق يقول في آيه
أخرى : (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ) ثم طرح الشيخ سؤالا
فقال ما المراد بالنفس هنا • ؟ هل المقصود بهذا إلهام
واحد أم الإلهامان • ؟ (أي النفس ككل) أجاب فقال :
النفس كلها • وعندما يموت الإنسان هل يقضى على هذه
الغرائز أم تبقى؟ الواقع أنها ستظل باقية ، والحق يريد بفضله
أن يثيب عبده ويكافئه بدخوله الجنة جزاء طاعته الخالقة في

الدنيا، ولأنه الكريم يقول لعبده ما دمت أطعني باستعمال
غرائرك في رضاي سأجعلك تعيش حياه الخلود كلها ممتعا
بهذه الغرائز وستجد في الجنة يا عبدي ما لا عين رأت ،
ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . ثم بين الشيخ بعد
هذا حديث الرسول صلى الله عليه وسلم الذي قال فيه ما
معناه (**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام
عادل**) قال إن الإمام العادل ليس مقصورا على الحاكم فقط .
بل كل مسئول في مكانه . حتى إمام المسجد وحينما قال
الرسول عليه الصلاة والسلام . (**وشاب نشأ في عبادة الله**)
كان من الضروري أن نفهم دقة التعبير التي في العبارة . معنى
أنه نشأ في عبادة الله أنه تربى على الاستقامة ، فلم تستعبده
الغريزة الجنسية . ولم يكن من هؤلاء الشبان العابثين
الماجنين الذين يسيرون في الشوارع يضايقون النساء ، لأن
نشأته وحياته كلها عاشها طاهر الذيل . مؤدبا بأدب
الشريعة ، وكان دائما عند قول الحق (**قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا
مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ** . . . الآية)
وهذا الشاب واصل نور الفطرة بنور الإيمان: وهنا طالب أحد

المستمعين بأن يضرب الشيخ مرة أخرى مثالا لإلهام
التقوى ، وإلهام الفجور فقال أنت طالب جامعي أستيقت
يوماً ما وقد انتابك الكسل ، فعزمت على عدم الذهاب
إلى الجامعة يومك هذا : وهذا الخاطر من إلهام الفجور
يأتي إلهام التقوى ليقول لك لو استسلمت له لتأخرت
في دراستك هنا تدخل إلهام التقوى وعرض عليك نتيجة
كسلك • وكيف أنك ستخلف وستضيع عليك المحاضرة
وربما يأتي الامتحان من هذا الجزء • ساعتها ستَهَبُّ مسرعاً
ترتدى ملابسك ثم تذهب إلى دراستك • لولا استخدامك
إلهام التقوى لضاعت عليك فرصة الذهاب • مثال آخر :
ركبت السيارة ومعك سائق مغرور يسير بسرعة ليسبق
الآخرين ، ولم يتقيد بإشارات المرور • لو ترك وشأنه
ربما انقلبت السيارة • لكن إلهام التقوى بدأ يحذره • ما
مصيرك لو اصطدمت بسيارة أخرى ؟ ما مصيرك لو اجتاز
الشارع أحد المارة ؟ ستكون الكارثة ويقع المحذور • وهكذا في
أمور الدين • وهذه هي التزكية التي أرادها الحق بقوله (قَدْ
أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا) أي زكي فجورها بتقواها ولذلك قال الحق في

آيه أخرى (فَأَمَّا مَنْ طَفَىٰ وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا • فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ) حيث ترك النفس تسير وفق هواها فعاشت بشهواتها وطمعها ، وأنانيتها • فاستحقت تلك النفس الخزي والضلال • الصورة الأخرى : (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ • فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ) واستحقت هذه النفس كرم خالقها حيث عاشت في ظلال المنهج فلم تخرج عنه ، وعلل أن سبب بعدنا عن منهج الله سبحانه أننا عملنا قبل أن نؤمن الإيمان الكامل • أما الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، فإنهم آمنوا قبل أن يعملوا • وهذا هو الفارق الكبير بين إيماننا وإيمانهم رضوان الله عليهم أجمعين • ولضعف هذا الإيمان في نفوسنا يعرض القرآن علينا ما تكون عليه الحور في الجنة في قوله : (وَحُورٌ عِينٌ • كَأَمْثَلِ اللَّوْلُوفِ الْمَكْنُونِ) هذا العرض لا يشد المسلم لكنه لو أستمع إلى صوت مغنية كأم كلثوم لشده صوته شداً عجيباً • ولو رآها وهي تتمايل يمينا وشمالاً لكان الإعجاب أشد وأعظم • فما السر حينئذ في هذا ؟

أقول : إن السر هو أن إيماننا بالغيب ضعيف • وبلغ من ضعف إيماننا أننا نلهو كثيراً وكتاب الله يتلى على مسامعنا فلا تهتز قلوبنا ونتلوه بأفواهنا فلا يجاوز حناجرنا • فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم •

ولنَعُدَّ مرة أخرى لنعرض صورة مما كان عليها أصحاب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ففي غزوة من الغزوات أصيب من كان يمسك الراية في القتال بيده فلما قطعت تلك اليد أمسكها بالآخرى ، ولما قطعت اليد الثانية أطبق على الراية بعضديه حتى لا تسقط ، ويشعر المسلمون ببداية الهزيمة وهاهو ذا أحدهم يندفع إلى القتال يصول ويجول • ويقول : والله إني لأشم ريح الجنة • وظل يقاتل حتى أصبح في تعداد الشهداء • فأين نحن من هؤلاء • ؟ لكننا نعود لنكرر ونقول : إنهم آمنوا قبل أن يعملوا إذا فلا عجب إذا ما سجل تلاميذ المدرسة الحمدية أنصع الصفحات من النور في البطولة والفداء ولذلك زكاهم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله (أصحابي كالنجوم • بأيهم اقتديتم اهتديتم) وهنا وجه الشيخ إلى الحاضرين سؤالاً فقال :

هل حينما تسمعون النداء يؤذن للصلاة تشعرون بأنكم
ستمثلون بين يدي الله سبحانه ؟ هل يشعر المسلم وهو
يتقرب إلى ربه أنه يتقرب إليه بعبادة مشروعة ، وأنه بهذا
يُحْيِي كلمة (لا إله إلا الله ، محمد رسول الله) ؟ وهل عمل
المسلم بقوله صلى الله عليه وسلم (**صلوا كما رأيتموني**
أصلي) ؟ أم أنها صلاة جوفاء ، خالية من الخضوع
والخشوع ؟ من منا آمن بقول الله في فاتحة الكتاب وهو
يصلي (**الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ**) فتيقن بأنه سبحانه وتعالى (**رَحْمَن**
رَحِيم في قدره وقضائه - من منا يشعر بأنه في مقام المشاهدة
وهو يقول : (**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**) تجريد من الحول
والقوة ، فالله أعظم من أن تعبده ، ومعنى الاستعانة به في
عبادته أن تعمل بشريعته (**إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**) بوعدك ووعدك
نستعين على عبادتك ، والمسلم حينما يرتفع يقينه إلى
الإيمان بالربوبية ، فإنه من غير شك سيقر بالألوهية .
والألوهية شكر لعطاء الربوبية . ولذلك قال الحق في شأن
إبليس اللعين (**قَالَ فِيمَا أُغْوِيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ**
الْمُسْتَقِيمَ . ثُمَّ لَأَتَيْنَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ

أَيَّمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (لأن الشكر
على نعمة مُحدثة • والله يقول (**وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ**)
فإبليس اللعين يحجب العبد المؤمن حتى لا يعبد الله أو يشكره
عن صدق وإخلاص • فالشيطان يغري المسلم بإضافة النعم
إلى نفسه ، وهو بهذا ينسى الله عز وجل ، والحق يقول
(**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ**) ومعنى ذلك
اشكروا لي بصفاتي • أشركم بأفعال الصفات • ولعل
مراد الشيخ والله أعلم اشكروا لي بصفاتي بأني أنا الرزاق ،
الوهاب ، المعطي ، الغفور ، الودود • ومعنى أشركم
بأفعال الصفات : حيث يعطيهم سبحانه ، ويرزقهم
ويهديهم ، ويوفقهم (ولا تكفرون) بمعنى أنكم لو أضفتم
هذه النعم إلى غيري لكنتم بذلك قد كفرتم بصفاتي :
(اذكروني أذكركم) اذكروني بصفاتي أذكركم بمفعولات
الأسماء والصفات : العبد يقول (يا غفار اغفر لي : ذكرت الله
بصفته فأعطاك المغفرة : يا رزاق ارزقني : ذكرته بالرزاق
فذكرك بأفعال الصفات ، وتجلي عليك برزقه تفضلا منه
واحسانا وهكذا • (واشكروا لي) ذكرني إياكم فهذه النعمة
من ذكرى ، ومن صفاتي أني أعطيك •

(اَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ) الذي يعطي بلا مقابل ولا استحقاق .
ولقد صدق سبحانه وهو أصدق القائلين : (وَمَا بِكُمْ مِّنْ نِّعْمَةٍ
فَمِنَ اللَّهِ) لم يقل الحق (وَمَا لَكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ) حتى لا
تكون اللام للملكية ، لأنه سبحانه وتعالى مالكها يعطيها
ويسلبها وقت ما يشاء ويريد . لكنه عز وجل عبر بالحرف
(ب) التي تفيد المصاحبة أو الملازمة .

ومن جميل ما يروى أنه دخل رجل على هارون الرشيد فقال
يا أمير المؤمنين : النعم ثلاث :

(١) نعمة أنت فيها وغير شاعر بها .

(٢) ونعمة أنت ترقب حصولها ،

(٣) ونعمة أنت فيها وشاعر بها .

فاشكر الله علي النعمة التي أنت فيها ، يعطيك النعمة التي
ترقب حصولها . ويكشف لك النعمة التي أنت غير شاعر
بها .

والنعم كثيرة ودائمة كالإبصار ، والسمع ، والصحة ،
والعقل ، ونعمة الإسلام ، ونعمة الإيمان ، قال تعالى (ثُمَّ
أَوْثَرْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا الآية) وفي

التعبير بقوله عز وجل : (اَصْطَفَيْنَا) ما يطمئنا كمؤمنين .
وكان التعبير بأورثنا لبيّن أنه ليس ملكا . قال الحق :
(أَوْرَثْنَا) لأن المعطي هو ، فلا يعطي غيره ، والمانع هو ولا
يعني المانع أن يمنعك شيئا ، لكنه يمنعك ما يضرك . ومن
حكيمته سبحانه أنه وهب الرضا لكل إنسان بنوعيته . فلو
قلت لأية امرأة هل تحبين أن تكوني رجلا لأسرعت بالنفي ؟
بل ربما تعتبر أنك أهنتها . هذا مع ما تتحمله من مشقة
التربية والسهر وعمل المنزل . وكذا الرجل لو قلت له
سأهبك المليارات لتكون أثني فإنه لن يقبل هذا مطلقاً ؟
ثم قال رضى الله عنه : أليست الحياة من أحب النعم ؟ خاصة
وأنت تشاهد الكثيرين قد انتقلوا للآخرة . والنعمة التي
ترقب حصولها كأن تتمنى أن تسافر إلى البلاد الأجنبية
وكالمؤمن يتمنى أن يحج . المؤمن حينما يشكر الله على ما به
من نعم فإنه سبحانه وتعالى يحقق له النعم التي يرقب
حصولها . وهذا معنى قول الحق : (لِيَن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ)
وفي الزيادة إطلاق لا حدود له سبحانه جل في علاه - وهنا
وفي غمرة إحاطة المؤمن بالنعم لا يفوت العدو اللعين أن يقوم

بدوره الذي خلق له • فيحجبنا عن المنعم ، ولكن الحق لم
يتركنا نهباً لمخالبه يغرسها فينا كيف شاء ومتى شاء • لأنه
الرب الرحيم يضع أمامنا الضوء الأحمر حتى يستيقظ المؤمن :
(**ثُمَّ لَا تَأْتِيهِمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ
شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ**) نعوذ بالله من السلب
بعد العطاء :

وعلى المؤمن أن يتذكر دائماً أن الشيطان يمتيه بالمفقود حتى
لا يشكر الله على الموجود •
**فنسألك اللهم العون عليه ، وألا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين
أو أقل منها •**

والحمد لله بداية ونهاية •

ذو القعدة ١٤٢٥ هـ